التوبة

حوار في مشهدين

بقلم نديم خشفه

الاشخاص

جريج : عابد في صومعة .
سارة : مغنية حسناء .
لاقيس ، مطوس ، وازر : من الجن .
توما : خادم .
المصدر : رياض الصالحين للنووي .

*

(المشهد الاول)

(لاقيس . مطوس)

لاقيس : لا تحدثني عنه فقد كرهت سمعي لانه يصغي الى حديثه ، وودت لو سل لساني لانه ينطق باسمه .

مطوس : ولكنك لست باكره له مني فانت تعرف ما فعل بي يوم أطفت به . وكان ابليس ـ لـه الكبرياء ـ قد بعثني اليه لارده عن بعض ما يوحي الى الرعاة . وكانوا قد اجتمعوا يسمعون حديثه، وانه لعذب اللسان ..

لاقيس (يبتسم) : نعم . لقد ضربك بأناء لبن كان أهداه الرعاة اليه.

مطوس : انه جعل من أولئك الرعاة الجفاة اقواما أولي عطف ورحمة .

لاقيس : وأذكر أن « وازر » قد قال حين رآك : « ما هذا اللبن حول فمك ألم تفطم بعد » ؟

مطوس : اقسمت عليك الا ما كففت عن هزلك. ان الامر لاخطر من الهزل والمزاح . ويلي من هذا العابد ..

لاقيس : بل ويلي لهذا العابد منا . أ تعرف ما أعددنا له ؟

مطوس : وقد أعددنا له من قبل فلم يفلح فيه مكرنا .

لاقيس : لكن لن ينهض من عثرته هذه ..

مطوس : انه لم يعثر بعد ، ولا أظنه يعثر أبدا. انه لا يشبه أحدا ممن عرفنا . جربنا فيه كل كيد فلم نلق الا خزيا.

لاقيس : لكنا لم نجرب فيه النساء ، انهن سلاح لابليس لا ينبو .

مطوس : وهل أذن لنا فيهن ؟! انه لا يفزع اليهن الا اذا أخفق كيده جميعا .

لاقيس : نعم لقد أذن ..

مطوس : ومن تكون ؟

لاقيس : « ساره » ..

مطوس : جارية « نسطور » الخمار ؟..

لاقيس : سيتقبل الليلة فقم بنا نهيىء مجلس لهو وشراب . أنصت انني أسمع خطوها على الطريق .

مطوس : هذه خطوات عجلى ليست لها.

لاقيس : سنرى .

(يدخل « وازر »)

وازر : عما ظلاما . ما لكما تحدقان الي ؟

مطوس : حسبناك « سارة » ..

لاقيس : ولكنه يشبهها لولا هذا الانف الافطس والفم العريض ..

وازر : وأنت ، أتحسب نفسك أجمل مني وجها؟ أعرف عفريتا خيّر بين رؤية وجهك وبين أن يسجن في قمقم فما رضي بالسجن بدلا ..

لاقيس : لقد رأيت ملاكا يقول لصاحبه : « ان رؤية وازر لقطعة من العذاب » .

وازر : آه ، اذكرتني الملائكة .. لقد رأيت بعضهم اليوم ..

لاقيس : أنت ! هربوا منك لا ريب .

وازر : لا . انني لا أمزح ، رأيتهم و ..

لاقيس : وأغمي على بعضهم.

مطوس : اسمع . ألا ترى لهجته الخطيرة ؟ انك لا تكف عن هزلك .. أحق انك رأيتهم ؟

وازر : نعم . ورأيت هلك العابد أيضا .

لاقيس : كنا في حديثه منذ قليل .

مطوس : عرجت الى السماء اذن ...! ..

وازر : واتخذت مقعدا للسمع . وجعلت أرصد ما يرفع الى السماء وما يوحى منها ، فاذا انا بنفر من الملائكة يتنازعون شيئا بينهم ، أما ملائكة العذاب فتقول : « انها لنا . فتلك دعوة صادقة رفعتها الى الله أم ساءها اعراض ابنها عنها وقد اشتد بها الجوع وبلغ منها البؤس مبلغا » ..

وأما ملائكة الرحمة فتقول :

« انها لنا ، فتلك دعوة رفعتها أم عابد لايني قلبه عن ذكر الله ، وانا لنحوطه بأمر منه ، ندفع عنه كل بلاء ونحفظه من كل شيطان » ..

لاقيس : هذا ما يخيفني ...

وازر : ثم مضوا وهم يتحاورون . ولبثت غير بعيد فاذا ملك يقول لصاحبه وهو حسير :

« لن نحوط ذلك العابد منذ الليلة .. واني له لفي حزن شديد » ..

لاقيس : طارت عنه ملائكة الرحمة اذن ...

مطوس : وقد وكلوه الى غرائزه التي فطر عليها ...

وازر : وهان خطبه علينا ..

لاقيس : لكن من مصدر هذه النعمة التي نالتنا؟

وازر : انها أمه .

مطوس : أمه تفعل به هذا ؟

لاقيس : أعرف هرة أكلت صغارها .

وازر : جاءت اليه من الصبح وهو يصلي فدعته فلم يخرج اليها ، وكنت أراه يهمس في سره :

« يا رب . أمي وصلاتي » .

فأقبل على صلاته فانصرفت .

لاقيس : متى كان ذلك ؟

وازر : منذ ثلاثة أيام . فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت :

يا جريج . فقال : أي رب . أمي وصلاتي ، فأقبل على صلاته فانصرفت.

مطوس : واليوم ، ماذا غيرها !

وازر : أتته من الصبح وهو يصلي فقالت :

يا جريج . فقال : أي رب . أمي وصلاتي فاقبل على صلاته . (بصوت خطير) فرفعت وجهها الى السماء وهتفت :

اللهم لا تمته حتى ينظر الى وجوه المومسات..

لاقيس : لهذا دعوت « سارة » اذن ..

مطوس : ولكن هبه نظر في وجوه المومسات فماذا نفيد نحن من ذلك ؟

وازر : لقد نال الدهر من فطنتك . قلت لك حين ضربك باناء اللبن انك لم تفطم ففضبت. وان رأيك هذا ليدل على انك لم تفطم عن حق.

لاقيس : بل لم تقطع سرته أيضا .

وازر : لعله لم يولد بعد .

لاقيس : نعم . أعرف شيطانا لم يولد بعد.

مطوس (غاضبا) : انكما اذا اجتمعتما أفسدتما كل شيء . أهذا حين اللهو والمزاح ؟!..

وازر : انت تهدف نفسك بغبائك .. ان اي شيطان يوقر نفسه لا يجهل أن النظر شرك الفتنة. ولو كنت أديبا لحفظت قول الشاعر . ما يقول الشاعر يا « لاقيس » ؟

لاقيس : الشاعر . آه . يقول :

« انت يا عين كنت للصبابات سلما »

« ثم حملتني الثقيل وأبكيتني دما »

مطوس : لا بأس . لقد أعجزتماني نثرا وشعرا. ولكن لا تنسيا أنه « جريج » الذي عجز عنه ابليس ـ له الكبرياء ـ حتى اذن لنا في الاستعانة بالنساء.

وازر : ولا تنس أنها « سارة » وهي من علمت جمال وجه وصفاء فكر.

لاقيس : لقد شرب حاكم « القدس » الخمر بخفها الذهبي . أليس جميلا أن يشرب الحاكم من خف امرأة .

وازر : هذه فتنتك . انك لظريف حتى في الغواية .

مطوس : وكيف سنجعل العابد « يبكي الدما »؟

وازر : أرى ان نحرض « سارة » فتذهب اليه تبذل له نفسها .

مطوس : ولكن كيف نحرضها ؟

وازر : بالمال .

مطوس : هي غنية تنتعل خفا من ذهب . أما

السلطان فلا نملك منه شيئا على أن الحاكم نفسه يسجد لها حبا .

وازر : اذن ؟

مطوس : أرايت . انك عاجز حتى عن غـــواية « سارة » .

لاقيس : لكنها امراة . سنثير فيها الزهـو وحب الامتلاك . انها اذلت كل امريء في هذا البلد . ولكن النفس ، ونفس المراة خاصة ، لتشره الى ما لا تنال يدها . سنقول لها ان العابد لا يعرض عنك الا لقبح فيك أو غبـــاء. ولو كنت جميلة أريبة لصبا اليك ورنا لبهجتك وحسن حديثك.

وازر : ستفويه اذن.

مطوس : وهل حرضتها على غوايته ، فكيف تحرض العابد على الاستماع اليها ؟

وازر : انها جميلة . سيصغي اليها لا ريب. وقد نستعين بخادمه انه لين لا يمتنع علينا.

مطوس : لن يخدعه جمالها فهو يعـرف مـن سيرتها شيئا كثيرا .

لاقيس : ستزعم له انها انما جاءت اليه بعد ان ملت النعيم الذي تقلبت فيه وانها قد نزعت عن حياتها تلك اللاهية ، وصبت الى حيـــاة قدسية تعلو على هذه الحماة من الشهوات.

وازر : سيصدقها ، انه طيب القلب .

لاقيس : وسوف نشد أزرها بما نثير مـن غرائز ونطلق من شهوات .

وازر : ولن نخشى ان تكفنا الملائكة عنـــه، فقد هجرته وطوت أجنحة كانت تظلله .

مطوس : أخشى ان يفتنها فنخسر جنديـا جميـلا .

وازر : لا تخف شيئا سيبـــكي صاحبنا « الدما » .

لاقيس (يغمز بعينيه) : وربما بكى لبنا.

(المشهد الثاني)

(ساره . جريج . توما)

سارة (تنادي) : يا جريج ..

توما : انه قائم يصلي.

سارة : جريج ، اخرج الي أكلمك.

توما : لن يصغي اليك.

سارة : ألا ينتهي سيدك من الصلاة ابدا ؟

توما : انه يصلي دائما .

سارة : دعني أدخل اليه . أحب أن أراه وهو يصلي ..

توما : لا . لن تدخلي.

سارة : أصحيح ان سيدك يرى الملائكة ؟

توما : ان سيدي يرى كل شيء ..

سارة : هل رأيت أنت الملائكة ؟

توما : رأيت غماما يقترب من الارض. يقال ان الملائكة تنزل في الغمام .

سارة : هل الملائكة جميلة ؟

توما : لا ادري ولكن الصالحين يحبـــون الملائكة ..

سارة : هل أشبه الملائكة ؟

توما : أنت جميلة ..

سارة : أتحبني ؟

توما : انا أحب الملائكة .. انتهى سيدي من صلاته .

سارة : جريج .. أخرج الي أكلمك ..

(يدخل العابد)

جريج : ماذا تريدين ؟

سارة : لقد بح صوتي من الدعاء وانـت لا تجيبني ..

جريج : ما تريدين يا ابنة بابل ؟

سارة : اسم جميل .. ابنة بابل .. ولكـن لا أعرف أمي. هل تعرف بابل يا جريج .؟

جريج : أنت ابنة الغواية ، ما جئت تفعلين عندي ؟

سارة : لقد صعدت اليك في صومعتك هذه فادميت قدمي ، وانقطع شراك نعلي . أنظـر انني كهؤلاء الذين يعصرون العنب الاحمـر باقدامهم . ولكنني أحب أن أدمي قدمي فـي سبيلك . انك في صومعتك غريب كالنسـر، ولكن مهيب تخشاك الطيور . وقد جئتك لانني لا اخشاك .

جريج : من أرسلك الي ؟

سارة : قالوا انك تشرب من لبن الابل فاردت ان أراك ، قالوا انك ترى الملائكة فاردت أن اراهـم معك ، هل رأيت الله يوما ؟

جريج: ان مثلك لا يعرف الله . انك لا تستطيعين رؤية الله لانك لا تريدين . لو أردت ان تريـــه لرأيته ولكنك عمياء ، فقأت عينيك بيد آثامك .

سارة : أنا عمياء ؟ الا ترى عيني كانهما زهرتـا بنفسج ؟ ألا ترى اليهما كانهما بحيرتا فيروز .؟

جريج : من دلك علي أيتها العمياء ؟

سارة : أنت لا تحب عيني اذن . ألا تنظر الى شعري ، ان الليل يختبيء فيه اذا دهمه النهار. انه يسيل على كتفي كانه شلال نبيذ أسود . فمن منا الاعمى ؟

جريج : يا ابنة بابل .. ما أجاءك الـي ؟ انك سكرى لا تفيقين من خمر فجورك ، فمن ذا أرشدك الي ؟

سارة : قالوا : انك تسمع حفيف أجنحة الملائكة، فهل أسمعه معك ؟

جريج : انت صماء لا تسمعين ، ان رنين الكؤوس وحنين المزاهر قد سد سمعك عن اللحن القـدسي يهمي على الكون كل نهار . أنت لا تعرفين طعـم الحياة .

سارة : وانت تعرفها ؟ انك لا تذوق غير اللبـن شرابا . أما أنا فيجنى لي النبيذ من كروم «بيسان» ويؤتى الي بالخمر من « فارس » . أنا أشرب على ورد « جور » وأنتشي من بخور « صنعاء » ..

انني لاتقلب على فرش بطائنها ريش الطواويس ونسيجها حرير «الموصل» .. أنت الذي تجهـل طعم الحياة .

جريج : أنت تجهلين الحياة نفسها فكيف تعرفين طعمها ؟!..

سارة : اسمعوا لناسك لا يعرف الا الرعـــاة ويزعم أنه عرف الحياة.

أأنت الذي يسمر مع الحاكم كل مساء، ويشرب نخب ابنه الذي يغزو بلاد « فارس » ؟

ومن منا يحدث التجار الذين طوفوا البحـــار كلها وزاروا الاقاليم السبعة ؟

أنت لا تعرف أحدا ، أما انا فقد زرت «قيصر» في «روما» وأعجب بشعري هذا الاسود .

هل رأيت منارة « الاسكندرية » ؟ هل قـرأت في مكتبتها ؟

جريج : قرأت في أسفار الله .

سارة : هل ناقشت فلاسفتها الذين ورثـــوا الفلسفة عن سقراط وافلاطون؟ لقد حدثتهم عن الجمال فزعموا ان له علما يدرس في الكتب .

هل رأيت « سوريا » ؟ ان فيها واديا يـــدعى « وادي الدموع » لا يمر فيه أحد الا بكى منـــه، فاذا غادره بكى عليه .

ينبت على صخوره ورد أبيض اذا مسه آثـم أطبق أوراقه ومات.

ان فيها كروما تنبت بالفستق فاذا أثمر وحـان قطافه فتح منقاره الاصفر ودعا اليه القاطفـين، حتى ان العصافير لا تستطيع ان تنام في الليـــل من دعائه فتنقل أعشاشها الى كروم الزيتون.

انك جاهل حتى بأسفارك هذه . أتحفظ سطـرا مما كتب « زينون » ؟

جريج : أحفظ سطورا مما قال الرب (يحـدق في الافق) : يا عبادي كلكم ضال الا من هديتـه فاستهدوني أهدكم . يا عبادي كلكم جائع الا مـن أطعمته فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني أكسكم . يا عبـــادي انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنـوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم ..

سارة : ولكن لا شيء أجمل من قول « زينون » كل الفلاسفة أقروا بذلك .

جريج (لا يهتم بها) ... يا عبادي لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا .

سارة : أرايت ؟ لا قيمة لك في ملك ربك .

جريج : .. يا عبادي ، لو ان أولكم وآخـركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجـر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا .

سارة : ولكن أتؤمن بالجن ؟ انا لا اؤمن بهم .

جريج : وهل تعرفينهم اذا رأيتهم ؟

طبعت على مطابع :

« دار الغـد »

تلفون ٢٢٢٩٢١

اغنية وداع

الى ارنست همنجواي في ذكراه الاولى

كالنسر مقهورا هوى
لم ينتظر نهاية المطاف
الشيخ مل رحلة البحار
وغاب في مفازة التذكار
وفي محطة المدينه
عينا صبية تشير
الى كتاب أزرق الغلاف
عليه أحرف حزينه
همنجواي

* * *

لن تدق هذه الاجراس
« كاترين » ماتت وهي تمنح الحياه
لم تكتحل عيونها بطلعه الوليد
شدّت على الاعناق أطواق النجاه
يا أيها القضاء
يا مرسل الامطار احرى ترمـــد الجفون
تنصب في الفؤاد، تحرق الشفاه
وتنشب الاصابع الشوهاء في الدماء والعرق
تحجب عنا حلمنا السعيد
وتزرع السموم والقلق
لن يدق لحنك الخؤون
والشيخ مل رحلة البحار
وغاب في مفازة التذكار

* * *

عرفت كل الامسيات
واجهت لحظة المحال
عذبت بالمصير
برحلة الارهاق فوق أبحر الضياع
وبالدم المراق في حدائق الحياه
والموت بين أذرع النساء
والشمس تمضي للشروق
ويغرب الانسان وهو يحمل الصليب
يغوص معصوب الجبين في الرمال
يسبب في بحيرة الازل
والارض تحيى من جديد
الطفل يهجر المهاد
والشيخ مل رحلة البحار
وغاب في مفازه التذكار

* * *

تعانقوا ، ما اجمل الحياه
في لحظه تضم عاشقين
بلا زمن
وخفقه تشد طائرين
بلا وطن
وحبنا ان ينطفىء نمت
وان يضيء نحتضن الوجود
في قلبنا الى الابد
في لحن ملاحين بالبحار
مرددا انشدة انتصار
على هدير العاصفه
وساق زهرة على الصخور
ترف للسارين بالعبير
فوق الرمال الزاحفه
واعين في منجم سحيق
تقتحم الظلام والحريق
الى اللآلى الراجفة
تعانقوا في رحله المصير
وواجهوا القدر
بلا أسى
بلا هوان
بلا نـدم
بلا دمـوع

القاهرة — **حسن فتح الباب**

سارة : يقولون ان عيونهم تخالف عيون الناس فهي بالطول ولهم ذيول وأظلاف كأرجل البقر..

جريج : ولكن لهم نفوسا طفحت بالاثم وقلوبـا ولعت بالكيد .

سارة : وأنت . أتعرفهم ؟

جريج : الوجه مرآة القلب .

سارة : اذن انظر الى وجهي . ماذا ترى ؟

جريج : آه .. تذكرت .

سارة : هل أذكرك بامرأة أحببتهـ من قبل ؟ هذا ما يقوله لي الحمقى الذين يتعرفون الي. كلكم سواء .

جريج : تذكرت .. دعاء أمي.

سارة : أمك ؟ هل اذكرك بأمك ؟ انك تهينني، أتسمع ؟ انا لا اشبه تلك العجوز في شيء ، نعم انها عجوز قبيحة .

جريج : اني اشكر لك ان جئت . لقد كفرت عن اثمي .

سارة : تشكرني ؟ ولكنك زعمتني فاجرة لا تصلح حتى للشكر ..

جريج : نعم . انك جنة غناء تسكنـــها ارواح شريرة (يحدق فيها) .

سارة : ما لك تحدق في وجهي ؟ أتعرف . ان لك عيونا صافية . لا تنظر الي هكذا ، اعـــرف رجلا حدق في وجهي فأصابه الجنون ، ان الذين يحدقون في القمر يصيبهم مس جنون .

جريج : آه . هذه أمي مقبلة ، لقد اجاب الله دعاءها .

توما : حان وقت الصلاة يا سيدي .

جريج : أعرف ، ولكن سأرى أمي قبل الصلاة. أشكر لك مرة اخرى ان جئت الي ايتها المرأة فقد عرفت من ارسلك .

سارة : ولكن لا ادري كيف كفرت بي عن اثمك. هل استطيع ان اكفر عن اثامي ؟

جريج : (يهمس) .. يا عبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني أهدكم.

اذهبي . أريد ان أرى أمي الان ، ألا تسمعـين حفيف اجنحة الملائكة ؟ انني اسمعها .

(يدخل وتنظر الى الباب ذاهلة ، تسمع مـــن الداخل صوتا خاشعا) : يا عبادي ، انما هـــي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله .

سارة (وحدها) : نعم .. انني اسمع حفيف اجنحة الملائكة ..

جامعة دمشق — **نديم خشفه**